

صدرت عن النقطة التي ينقطع فيها الخطان الدماغيان : العرض،  $10^{\circ}$  والطول  $20^{\circ}$ ، وسارت بها موجة صوتية (الكلمة)، فإنها عندما تصل إلى دماغ المتلقى لا تقع على نفس النقطة التي ينقطع فيها خط العرض  $10^{\circ}$  والطول  $20^{\circ}$  إلا نادراً، وذلك عند تمام التفاهم بين طرفي العملية اللغوية. ولكن الذي يحدث في الغالب هو أن تقع قريباً منها على نحو يعكس في السلوك الذي يمارسه الطرفان، أو ما نفضل أن نسميه رد الفعل.

4 - رد الفعل وهو ما يبرز الجانب الديناميكي في اللغة، ويوضع القانون الأثيري للحركة. يتحرك جهاز النطق بإشارة من الدماغ (1) فيستقبلها جهاز السمع وينقلها إلى الدماغ (2) فيوجه أمراً إلى الجهاز العصبي للقيام بعمل ما، أو يخزن ذلك في الذاكرة (كتفافة وعلم) يؤثران في السلوك العام. وقد يتم رد الفعل بالقراءة والتأمل، ذلك أن المعاني لا تخفيء وراء الألفاظ وحسب، ولكن في المرئيات وكل المدركات بالحواس المختلفة، ولن يحدث رد فعل مناسب إن كان المرسل يصدر موجات صوتية (ألفاظاً) بينما يكون المستقبل مغلقاً صمام السمع، أو كانت عيناه مشغولتين بلاحقة بعض التحركات .. وبهذا يسهل فهم قوله تعالى *(ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه)* حيث أعتقد أن المقصود هو أن دماغ الإنسان لا يمكن أن يدرك بالسمع حدثاً ما في الوقت الذي يدرك فيه بالبصر حدثاً آخر، أرأيت أن الناس يتحسن بعضهم بعضاً في شغل كل من يدي الإنسان بالقيام بعمل مختلف في الوقت الواحد.

إن الإدراك الحقيقي من قبل الدماغ لا يمكن أن ينصب في الوقت الواحد إلا على شيء واحد، وإن اختلفت قنوات الإدراك متضادة في ذلك، كأن يشتراك السمع والبصر في قراءة القرآن، وهو ما يعرفه

وتشتمل الكلمة «بحري» عند عرب حضرموت للدلالة على اتجاه الشرق بينما يستخدمها عرب «عسير» للدلالة على الغرب، أما عرب الشمال الإفريقي فيستخدمونها للدلالة على جهة الشمال، كل يستخدم الكلمة للدلالة على الجهة التي يقع فيها البحر بالنسبة للمنطقة التي يعيش فيها. الكلمة هي الكلمة، والعرب هم العرب، ولكن المكان غير المكان.

ومن عوامل التوافق النفسي الذي يمكن العملية اللغوية من أداء رسالتها المتمثلة في إحداث رد الفعل المنطقي - سلامة الألفاظ وملاءمتها لما تحمله من معانٍ، إضافة إلى وضوح المعانٍ ذاتها، فلا يمكن أن يفهم سامع حديثاً بألفاظ غير مألوفة بالنسبة له وإن كانت عربية، أو بألفاظ غير سوية، كأن يكون المتحدث عبياً لا يفصح عن نفسه، إلا بقدر ما تفصح عنه بسطور بعض المخطوطات البالية الباهتة. ولا يمكن أن يفهم سامع ما يقصده متحدث يجهل ما يريد، أو يعجز عن تحديده بدقة، إلا إذا كان السامع ذكياً بشكل خارق فهو يستعين بما يوحى به المقام. كما أن السامع لا يمكن أن يفهم إن كان شارد الذهن، أو أصم، أو كانت مفرداته دنانير جزائرية بينما هو معتمد على التعامل بالدنانير الكويتية حيث يعادل الدينار سبعة عشر ديناراً جزائرياً تقريباً. فالدينار هو الدينار لكن في المكان الواحد، وليس عند الصراف. وقل مثل ذلك إذا كنت من يقولون ولا يفعلون، فهو يفهم ولكنه لا يأتي برد الفعل ولا يستجيب. فإذا بك كالناfax في قربة مشقوقة .. وإذا بألفاظك ليس لها رصيد معنوي تماماً كالعملة لا رصيد يغطيها... أو تعجب إن أفلست إذن؟

إن المتلقى الذي هو ما يرشحه اللفظ الذي حمله الملقى معنى ما، لا يقع في دماغ المتلقى بحيث يكون في نفس الموضع الذي صدر عنه من دماغ الملقى تماماً. ولتوسيع ذلك نفترض أن إشارة ما (المعنى)

إن الكلام إذا لم يحدث رد فعل في المستمع، يتضح في سلوكه، أو يخزن كحصيلة ثقافية، فإنه يكون عبئاً من المتكلم، وعليه أن يبحث عن أسلوب آخر، وإنه بذلك ليختصر الوقت اختصاراً. كثيراً ما ترفع الأم صوتها في تنبيه أبنائها إلى إطفاء المصايبع عند الخروج من الغرف، أو عندما يكون الضوء المتشر في الفضاء كافياً، وأبلغ من ذلك أنهم يقولون في المثل «كم وقد الشمع أمام العيآن» استخفافاً بالفاعل، تماماً كما قال شاعر الجاهلية فيمن لا يقوم برد فعل لما يسمع :

لقد أسمعت لو ناديت حيا  
ولكن لا حياة لمن تنادي  
لو ناراً نفخت بها أضاءت  
ولكن أنت تنفس في رماد

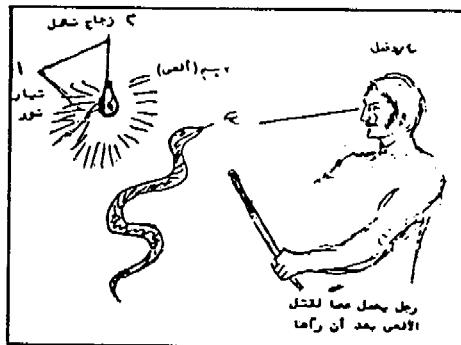
حيث استحق أن يشبه بالميّت الذي فقد الحركة، وبالرماد الذي فقد الحرارة، وهل رد الفعل إلا حركة، وهل الحركة إلا نتاج الحرارة والمعنى؟ وبناء على ما سبق، فإن رد الفعل قد ينعدم، وذلك في حالين هما :

الأولى : عدم الفهم الناتجم عن خلل في كل العناصر التي سبق أن ذكرناها، أو في بعضها، وهي المعبر عنه، والمعبر به، والمترافق المترافق، وموقعه من الدماغ المرسل إليه.

الثانية : عدم الاستجابة لما يفهم نفاقاً أو كذباً أو تبلداً في الحس، ويأساً، كالطفل متند يدك له بالحلوى فما إن يمد يده ليأخذها حتى تقبض يدك... تكرر ذلك مرتين أو ثلاثة فإن مددتها رابعة فإنه لن يمد يده ليأخذ حلواً، يأساً من صدقك... حتى لعابه، فإنه لن يستمر في السيلان تضامناً مع كرامته.

المدرسوون بالتبيّع، أو يشترك الذوق والشم واللمس في إدراك ثمرة ما في الظلام، ذلك أن الطريق التي تصل الدماغ بالعامل الخارجي لا تسمع إلا بعبور رسالة واحدة في الوقت الواحد.

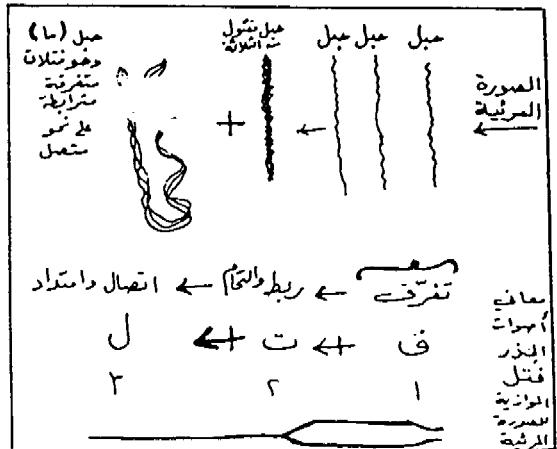
اسمع : مدير الحركة في مطار جدة يطلب من المسافرين على الخطوط الجوية السعودية إلى عمان أن يتجهوا للبوابة رقم 1.



انظر : ذلك رجل ينهض، وآخر من هناك، وهذا يجري باحثاً عن أطفاله الذين خرجوا يلعبون تحت الأشجار... أكثر التحركين يتجهون نحو البوابة رقم (1) لكن هنالك أفراداً لم يقوموا. أهم أجانب لا يفهون العربية؟ أم هم صم لا يسمعون؟ بل لعل الأمر لا يعنيهم؟ اللهم إلا أن تكون أذهانهم شاردة، فهم الموجودون الغائبون. ترى ما التبيّع في كل الأحوال؟ إنها بقاوهم جالسين... لم يحدثوا رد فعل، ولم يلبوا النداء. وبهذا نستطيع أن ندرك العوامل التي توجه رد الفعل وتحدّثه.

ترى هل نوري مصباح الكهرباء لنبحث عن كل شيء في الغرفة؟ أنسنا نفعل ذلك للقيام بعمل مخصوص فعلاً أو احتفالاً بعد حين؟ ما أشبه فعل الذين اتجهوا للبوابة رقم (1) بالعمل المخصوص الذي أوريت المصباح من أجله، وبالجسم الذي سلطت عليه الضوء المنعكس عن المرأة فهو مشرق بينما الأشياء من حوله ظليلة.

وفجا (الجو إذا صحا، والفجوة من قوله تعالى هوهم في فجوة منه) وفغر (الأسد فاه إذا فتحه) وفم (الإدمي والحيوان حيث يمثل ثغرة في الوجه) وغيرها. وقد يقال : ماذا تقول في القتل، قتل الجبل ؟ أين هي المعاني التي ذكرت ؟ أليس الأمر معكوسا ؟ فنقول : إن الصوت المرموز له باللام الذي يختتم به فعل ليعكس الأمر في ظاهره، لأنه يفيد الاتصال، إلا أن المعاني التي ذكرناها واضحة في الصوتين الأول والثاني (فت) على نحو ما سنوضحه مستعينين بثلاثة خيوط رفيعة على النحو التالي :



فالقتل لا يتم إلا في متفرق أصلا. فالفاء أولا، تفيد التفرق (الخيوط الثلاثة) والباء ثانيا، وتفيد الربط والجدل، واللام ثالثا، وتزيد الاتصال والامتداد. وكل مفتول يمر في المراحل الثلاث، حتى.

حسنا وماذا تقول في الفقير ؟

إن بعض المفردات تنتقل في رحلتها على الألسن الناس إلى معانٍ تنشعب من دلالات تناقض دلالاتها الأصلية، فلا يعتمد بها. كالقرن يعني الجبل المنفرد في الصحراء تشبيها بالقرن من ذوات القرون. لكن القرن يفيد في الأصل معنى الإزدجاج والاقتران، وليس الانفراد كما رأيت من أمر الجبل المنعوت ؟ إن ظاهر الأمر يشير إلى أنه لا علاقة بين الفقر والمعانٍ التي ذكرت سابقا، لكن التحليل يضع الأمر في

وقد يتظاهر الملتقي بالفهم فهو منافق، أو قد يدعى عدم الفهم عنادا واستكبارا ومكر السيء وربما كان من العجز أو تبلد الحس بحيث لا يلبي لما ي عليه فهمه من رد فعل، وأعتقد أن هذه الأحوال مجتمعة هي السبب في الواقع العربي المشلول حيث لا استجابة للتحديات والمخاطر المحدقة بالأمة... لا من رأى ولا من سمع !

وقد يقع رد الفعل قريبا مما ينبغي أن يكون عليه، وذلك لنقص الفهم أو الاستجابة لسبب من الأسباب السابقة، وعندها، لا بد من المعاودة والنقاش والجدال إلى أن تستبين الأمور وتتحدد المواقف. والنادر هو أن يأتي رد الفعل مطابقا للفعل، أي موفيا بالغرض، دون جدال ونقاش، وهذا لا يتم إلا ب تمام العملية اللغوية وبالصدق الذي يصدر عنه الطرفان.

★ ★

ومن الظواهر التي تعكس ديناميكية العربية معانٍ الأصوات وملازمتها لها بطريقة حتمية. وإذا بدا ظاهر الأمر مخالفا لذلك، فإن باطنه سيواقه، والباطن أوثق اتصالا بالحقيقة من الظاهر. وعندها ينبغي أن نبحث عن الدلالة الأصلية حيث تكون مجهلة أو لم تعد تستخدم، وهي دلالة مادية دون شك.

فما من أصل لغوي (أو مادة أو جذر) - وسنستعرض عنها بالعلامة الرياضية (ـ) - يبدأ بالصوت المرموز له بالفاء - مثلا - إلا كان لدلالة تصرف لمعنى إحداث ثغرة أو حدوثها، ولمعنى الانتشار والفتح، ويمكن تدبر ذلك في المفردات التالية :

فتح (الباب)، وفق (الله السموات والأرض) بعد أن كانت رتقا) وفت (الخنزير)، وفشا (السر) وفجر (القنبلة والمحوض والدمبل والضوء الليل) وفرج (الثوب والكريبة...) وفسر وفصل (الحديث المبهم)، وفرق (العدو) وفقس (البيض) وفاح (الزهر بشذاء)

شفة : حيث لا يكون إلا اثنان منفصلتان.  
شفر : ومنه مشفر البعير، وهو كالشفة من الإنسان،  
والشفرة السكين، لأنها تستخدم في القطع،  
والقطع تفريق.

شعب : ومنه الشعبة، وهي الفرقة والفتنة. وموضع  
متشعب إذا كان ذا فروع كثيرة.

شعر : ومنه الشعر في الرأس وغيره، والشعر من  
الحجب ولا يكون إلا كثرين متفرقين.

شعو : ومنه غارة شعواء : متفرقة، وانشعى  
الحَبَّ إذا سقط على الأرض وانتشر،  
والخيل شواع أي متفرقة.

شعل : ومنه الشعلة، ولا تكون إلا متفرقة  
الأطراف، أو ما يعرف بأسن  
اللهب.

شع : ومنه الشعاع، ولا يرى إلا خيوطا  
متفرقة، وكذلك الشعاع في لهجة  
عسير وتهامة، وهو الشعاع. والتفرق  
في الأشعة راجع إلى تفرق أهداب  
الجفنين. لأن سيل الضياء ينعكس عن  
فيأخذ شكله وهبته وتفرقه، وهكذا،  
فإنه لو لا أهداب العين لما كان  
الشعاع، وإن الاشتراك في الصوتين  
ش، ع ليس مجرد صدفة.

الشرق : من حيث تنبثق ضياء النهار.  
المعروف .

الشرم : الأرض تشرب ماء المطر.. تتصه  
فيتفشى فيها وكذلك الإنسان.

الشرب : (من القبلة) وفي عسير يقولون :  
شظى الخشب أي شقة بالفأس،  
وشظف الصخر كسترة.

نصابه. فالفقير فعيل من فقر، وهذا الأصل  
لدالة تقع على معنى الانفتاح، ومنه الفقير بمعنى  
القناة في باطن الأرض تكون بين العيون لتجمع  
ماءها. ومنه الفقرة من العمود الذي يتتصف الظهر  
ابتداء من الرقبة، ولا تكون الفقرة إلا مفتوحة (حيث  
يمتد حبل النخاع الشوكبي)، أما الفقرة من المقال،  
فعلى التشبيه بالواحدة من فقار الظهر، والفقير (إلى  
الله) هو المفقر، فعيل بمعنى المفمول، على التشبيه بمن  
أصيب عموده الفقرى (كالمبطون والمصدر  
والملقوب للمصاب في بطنه وصدره وقلبه على  
التوالى) فهو لا يقوى على النهوض، وما (أفتر) من  
كان هذا شأنه. وأنت ترى أن كلمة الفقر (إلى الله)  
إنما استمدت معناها من معنى منشعب من المعنى  
الأصلي الذي يفيد الفتح والافتتاح على نحو معين.  
ولعل بيض يوضح تنوع الوجوه التي  
تسلك فيها المoward للحصول على ألفاظ لسميات  
مختلفة. إن دلالة بيض واحدة، ولكن انظر إلى  
الاختلاف في معاني مشتقاتها ومبانيها :

البيضة : معروفة.

البياض : اللون، معروف.

البياض : الفحم في لهجتي عرب Libya ومصر.

البيض : ليالي البيض، وهي الثانية والثالثة والرابعة  
بعد العاشرة من الشهر القمري لأنها تمر  
بتور القمر.

البياض : نوع من السمك.

الأبيض : قرية في جنوب Libya، وأخرى في غرب  
السودان (تضبط بصورة مختلفة) الأبيض.

البياضة والبيضاء : موقع مختلفة في بلاد العرب.  
وما من جذر يبدأ بالشين إلا كان دلالة تقع  
على معنى التفشي والتفرقة، والانتشار، ولذلك أن  
تفصى ذلك في ما يلي :

الشق : معروف.

المعنى عندما يحدث على أرض الواقع. ولقد تنبه القدماء عندما رمزوا للصوت الأسنانى المتشقى بالشكل (ش) فجعلوه أسناناً متفرقة ونقطاً ثلاثة، فتفريق الأشياء المعبر عنه بالمفردة - التي يتتصدرها حرف الشين - هو انعكاس أو تكبير لحركة جهاز النطق عند التصويت بالشين، حيث يتشرّد الهواء خارجاً بين الأسنان واللسان. وإن الشفتين والأسنان تُتَخَذ شكلًا يسمح بتفريق الهواء الخارج عند التصويت بالفاء على نحو نجده مبكراً في الفعل الذي تنجي عنه بالمشتق مما تتتصدر الفاء جذرها. وهذا لا يعني أنه لا دور للصوتين الثاني والثالث لا، لكن الأول، فالثاني هما الأهم، بينما يوجه الثالث الدلالة وحسب. والمسألة تشبه بل تطابق الرقم المكون من ثلاثة خانات، مثل : 967، فالتسعة ليست تسعة وإنما هي تسع مائة، والستة ستون، كما أنها عند التقريب لأقرب عشرة نقول 970 ونضيف ثلاثة، ولا تكون قد ابتعدنا . وعند التقريب للمئات نقول 1000 ولا تكون قد ابتعدنا كثيراً بالرغم من إضافة

.33

وعندما رسموا الميم هكذا (م) فعل التشبّه بشكل الفم عند التفوه بها، حيث يدوّن التضام والانقطاع بقدر ما تبديهما المواد التي تتتصدرها الميم أو تنتهي بها.

إن هذه الظاهرة لا تبرز في لغة غير العربية ولهجاتها المختلفة، في تاريخها الذي يمتد إلى ما قبل الطوفان كالآرامية والعبرية والسريانية والبابلية والسيئية والمندوعية والجعزية وغيرها.

فالحرروف رموز توضح حركات جهاز النطق من المتكلم عندما يعبر عن معانيه، ورد الفعل من المستمع تكبير لتلك الحركات، إضافة إلى أنه يشكل استجابة للدافع الذي حرك جهاز النطق بها. تقول : هات (وتمد يدك) ويرد المستمع قائلاً : خذ (ويمد

وكل جذر يتوسطه الصوت المرموز له بالحرف (ح) فهو دلالة على معنى الاحتراك والحك، وتوضيحاً لذلك نورد الأمثلة التالية : السحب، ولا يتم إلا باحتراك سطح المسحوب مع سطح المسحوب عليه. والسحل الذبح، معروف، والسحل كالمجهول ولكنه للبغال، ويتم باحتراك أجزاء النطق على نحو معين. والسحق معروف، والزحف والزحام والزحاج معروفة، والزحل كالزحف، ولكن إلى الوراء، وإنما سمى الكوكب المعروف زحلاً لتراجعه في ذلك البروج ليلة فليلة إلى أن يختفي. والوحـل معروف لا يتخلص منه الماشي فيه إلا بشدة. والرـحل دائم الاحتراك بمتن الناقة، وغير ذلك مما يسهل توجيهه.

والثاء في أول الجذر توجه دلالته لمعنى التفريـق والانتشار ونحوهما. فالثـوم لا يكون إلا أحـاداً متفرقة وإن اجـتمعت أـسافـلـها. والثـلـاثـةـ من العـدـدـ جـمـعـ شـتـيـتـ، والثـمـرـ آـحـادـ مـتـنـاثـرـةـ، وـ(ـثـمـ)ـ العـاطـفـةـ لاـ تـقـعـ إـلـيـنـ مـتـبـاعـدـيـنـ مـفـتـرـقـيـنـ، وـ(ـثـمـ)ـ الـيـنـ لـلـإـشـارـةـ فـهـيـ للـبـعـيدـ الـذـيـ (ـيـفـرـقـ)ـ بـيـنـكـ وـبـيـنـهـ بـوـنـ شـاسـعـ. والـثـغـرـ معـرـوفـ، وـالـثـرـوـةـ لـكـثـرـةـ وـتـفـرـقـ، وـالـثـرـىـ التـرـابـ، كذلكـ، وـالـثـلـلـ أوـ الشـلـلـ إـمـاـ لـشـعـرـهـ المـتـفـرـقـ، أوـ لـجـرـحـهـ المـتـعـدـدـ الـمـاـخـلـ وـالـخـارـجـ. وـالـثـوـلـ الـجـمـاعـةـ منـ التـحـلـ. وـالـثـلـلـ إـخـرـاجـ التـرـابـ وـتـفـرـيقـهـ.

إن ما نريد أن ننتهي إليه بعد هذا العرض هو أن لكل صوت من أصوات العربية معنى يسهم به مع غيره في توجيه دلالة الجذر الذي يشتراك فيه. وأن هذه الأصوات لا تدل على معانٍها بطريقة عفوية أو اصطلاحية تواضعت عليها الناس ولكنها يعبر عنها بمحاجات تدرك بالسمع فالدماغ. وبعبارة أخرى، إن حركة جهاز النطق عند إخراجه للصوت يحكي صورة رد الفعل لكن بصورة مصغرة، أو صورة